

باريس : خطوة الى الامام إثنان الى الخلف

لا بد للحوارا لحميم بين فرنسا والغرب من ان
يتجدد ، فالعالم العربي والإسلامي جار لأوربا
فتهمنا مجاورته ، أما بالنسبة لأمريكا فإنه
أشبه بهلوسة كاريكاتيرية ..

جان بيير شوفنمان

وزير الدفاع الفرنسي المستقيل

كان السيد ميشيل فوزيل رئيس لجنة العلاقات الخارجية في الجمعية الوطنية الفرنسية هو السياسي الفرنسي الوحيد الذي اجتمع طوال الأزمة مع الرئيس صدام حسين .. مع ان العراق كان قد اقترح ان يحضر الى بغداد مطلع كانون الثاني (يناير) 1991 فوج يرأسه وزير فرنسي نخول ، الا ان باريس فضلت إيفاد شخصية برلمانية تحظى بثقة الرئيس ميتران وتحقق من خلاله معالجة لأي اختناق تواجهه الحكومة امام الجمعية الوطنية ، إنذ سيكون بمقدور الرئيس الفرنسي إذا فشلت مهمة فوزيل ان يذهب الى الجمعية الوطنية يوقل لقد ارسلت واحداً منكم ولم نصل الى شيء فلا يلومني احد على المشاركة في الحرب . وفي الوقت نفسه فان شخصية برلمانية لن تلتزم امام بغداد بالجرعة التي يمكن ان يلتزم بها احد أعضاء الحكومة .

ارتبط فوزيل بعلاقة حميمة مع الرئيس ميتران الذي كان شاهد زواجه ، ثم عمل معه خمس سنوات ناطقاً رسمياً باسمه منذ دخوله قصر الاليزيه ، ولطالما ردد ميشيل فوزيل ان الرئيس الفرنسي يعامله كإبن له ، ولذلك اختار في بدء حديثه مع الرئيس صدام حسين قبل منتصف ظهيرة السبت الخامس من كانون الثاني (يناير) 1991 ان يشير الى العلاقة الشخصية التي تربطه بالرئيس ميتران وقال :

– ان ما أقوله سيبقى سراً وما ستقوله لي يا سيادة الرئيس سأنقله الى الرئيس ميتران فقط .

وقبل ان يعرض مهمته صار يلخص رأيه بالعلاقات العراقية – الفرنسية فقال : (ان فرنسا تعدّ نفسها صديقة للعراق وقد استفادت من هذه الصداقة خمسة عشر عاماً ، وتأمل اليوم أن تستمر صداقتها مع العراق وان الرئيس ميتران يعلم جيداً أنك انت الذي أرسيت دعائم هذه الصداقة وأنتب الذي تحافظ عليها) .

وفجأة توقف ميشيل فوزيل لحظة وكأنه شعر بأن الحديث عن الصداقة قد استغرقه فصيح لنفسه : (مع ذلك الصداقة ليست كل شيء في السياسة رغم أنها عنصر مهم فيها وفي حالة فرنسا والعراق هناك صداقة وهناك مصالح مشتركة ، وأن فرنسا تريد ان تبقى دولة عظمى في المستقبل وتحتاج لان تلعب دورها داخل المجموعة الاوربية وفي حوض البحر المتوسط وفي الشرق الاوسط . وهي قادرة على أداء هذا الدور إضافة الى انها أكثر دول أوروبا انفتاحاً على دول الشرق الاوسط .. لقد انتهت المرحلة الكولونيالية ونحن نريد ان نقيم قواعد وعلاقات صداقة وتعاون مع العالم العربي بالإعتماد على شريك قوي مثل العراق الذي يقع في المرحلة الأخيرة من مجموعة الدول الشرق أوسطية) .

كان الرئيس صدام حسين الذي جلس الى جواره وزير الخارجية والإعلام وسكرتيره ومرافقه يصغي بإهتمام الى كل كلمة يقولها ميشيل فوزيل ، واستنتج المبعوث الفرنسي ان ثمة سؤالاً يشغل الحاضرين فبادر بنفسه يطرح السؤال :

– هناك سؤال يطرح نفسه بلا شك .. إذا كانت مثل هذه الصداقة قائمة بين البلدين فكيف شاركت فرنسا في هذا التحالف القائم في الخليج ؟ ومضى يجيب على السؤال : (لو لم تشارك فرنسا في هذا التحالف لما أمكنها لعب الدور الذي تلعبه الآن ، وبلا شك فان دور فرنسا كان فعالاً في التحالف) ، وعاد ثانية يفسر الكيفية التي تراها بلاده لأداء دور سياسي بعد مشاركتها الفعلية في العمل ضد العراق إذ ان الامر بدأ مركباً وغير واضح أمام مستمعيه . قال فوزيل :

– إذا استطاعت فرنسا إرسال مبعوثين سربيين وبشكل غير معنن الى السعودية والعراق فان ذلك سيكون أمراً ساراً لها لإيجاد حل عربي للأزمة .. وان لفرنسا موقفاً مهماً داخل المجموعة الاوربية ويمكنها عن طريق أصدقائها تغيير المسيرة الحالية ، وأنتم تعرفون ان الأوروبيين مختلفون ، فالانكليز والهولنديون يسبرون في خط امريكا تماماً أما فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا فهي دول تسير في خط يمكن للعراق الإعتماد عليه لإيجاد حل مناسب ، لان هذه الدول تعرف أكثر من غيرها الحقائق المتعلقة بالمنطقة العربية والأوسطية . وأشار فوزيل الى خطاب رئيسه في الجمعية العام للأمم المتحدة في الرابع والعشرين من ايلول (سبتمبر) 1990 وقال : ها هو مبتزان يمد يده مرة اخرى فإذا كان من الممكن وضع قائمة من الضمانات التي يريدها العراق لضمان أمنه فان فرنسا مستعدة ، وتوقف قليلاً ليقول : " إن الجميع يقولون أنتم تملكون بأيديكم مفاتيح الحرب والسلام " .

وهنا قاطعه الرئيس صدام حسين :

– السلام موجود لديكم وليس عندنا .. فنحن هنا في منطقتنا ، وقد حصل اعتداء على مقدساتنا ، ونحن مهددون ضمن بلدنا ووطننا ، لذلك فان مقولتكم هذه مقلوبة ، مفاتيح الحرب والسلام ليست بأيدينا .. لو كان مفتاح الحرب بأيدينا لكن قد ضربنا القوات الامريكية أثناء نزولها ولكننا لا نريد الحرب وانتظرنا خمسة أشهر حتى تحضر القوات الامريكية بينما يقول المنطق العسكري أضرب عدوك ودمروه قبل ان تتكامل قوته ، ولم نفعل ذلك لأننا نريد السلام مهما كانت بارقة الامل فيه محدودة . ان الفرنسيين والسوفييت هم أكثر الناس معرفة بان العراق يريد السلام بحكم تعاملهما الطويل معه . إن الذي بنى العراق هم نحن وليس غيرنا ونحن قوم نحسن البناء ونريد الفرصة للبناء ، إذن .. السلام والحرب هما بيد امريكا وفرنسا وغيرهما وليس بأيدينا . شكر ميشيل فوزيل الرئيس صدام حسن على ملاحظته وقال : " هل يمكن لفرنسا ان تضع لائحة الضمانات الإقتصادية والعسكرية والحدود والتنمية

والنفط والمؤتمر الدولي مع اعلان نية العراق في الانسحاب؟” .

كانت المفردات التي يختارها الطرفان خلال الحديث قصيرة تتحاشى الدخول في التفاصيل ، إذ ان فرنسا لم تكن مستعدة لإعطاء ضمانات بشيء ، ليس لأنها غير راغبة ، ولكن لأنها غير قادرة من الناحية العملية ، اما العراق فلم يكن متوقعاً أن يعطي أي شيء قبل ان يعرف الشيء الذي ستحصل عليه ، ولذلك بدا ان الكلمات تقترب من جوهر نقطة الإصطدام ، ثم لا تكاد تبتعد عنها .. فيلجأ المتحدثان بين حين وآخر الى الماضي والإستذكار لإسقاط ما يمكن استنتاجه منه على الحاضر .

لم يعلق الرئيس صدام حسين على مسألة اعلان النية في الانسحاب ، ولكنه ذكر ميشيل فوزيل بأنه اول مسؤول فرنسي يتحدث اليه منذ اكثر من سنة . ولعله أراد ان يثير حفيظته عندما أخبره : (أنب الامريكان كانوا ولحد الآن يجرون معنا صلات اكثر من الفرنسيين ويبدو أننا ظلمنا كثيراً بسبب (الإشاعة الدولية) عن صداقة العراق مع فرنسا ، ربما لو لم تكن معروفين بأننا أصدقاؤكم لتصرفت فرنسا بتأن أكثر وبإقتراب اكثر من الإنصاف ، ولقد حاولنا عدة مرات ان نظهر الصداقة من طرفنا بإجراءات ولكننا كنا نواجه دائماً بالصدود والإصرار على موقف فرنسي متعنت ، عندما سمحنا للضيوف الفرنسيين بالمغادرة بقرار خاص ووجهنا بموقف فرنسي أصعب من السابق حتى لا يقول الامريكان ان فرنسا صديقة للعراق ، وظلمنا بإجراءات كثيرة حتى اني كنت امزح مع رفاقي إذتر قلت لهم ان السماح للفرنسيين بالمغادرة يجرح ميتران وكان علينا ان نتفق على صيغة لا تخرجه .

نبه الرئيس صدام حسين ميشيل فوزيل الى انه لم يلتق من قبل مع الرئيس ميتران : ” لست مسروراً لعدم توفر فرصة للقاء مع ميتران ليعرف كل منا الآخر ، ففي الحرب مع إيران كانت ظروفنا صعبة ولم نشأ إحراج فرنسا وبعد الحرب قامت حملة في فرنسا قادتها زوجة ميتران ولم نشأ ان نلتقي في مثل تلك الأجواء .. ثم جاءت هذه الأزمة ومع ذلك بقي انطباعي ايجابياً عن الرئيس ميتران بسبب تجربته الطويلة وما كان يعلنه عن اهتمامه بالتاريخ ، وتاريخ الشعوب والدول بوجه خاص ولموقفه تجاه إيران ، قام ميتران بجولة في المنطقة وزار الكويت والتقى بحكامها السابقين وزار الامارات ولكنه لم يزر بغداد ، ولا أظن انه يحتاج ان نذكره بتاريخ بغداد وتاريخ بابل وسومر ونيوى .. هذه الحضارات التي علمت الانسانية الكتابة وعلمتها القانون .

كان صدام حسين حريصاً على إنعاش الحساس بالتاريخ منذ أحياء الحوار التاريخي المبكر الذي بادر اليه الخليفة هارون الرشيد حين أقام اول حوار من نوعه بين بغداد و (اكس راشايل) ، إذتر استقبل سنة 800 للميلاد مبعوثاً من ملك الفرنجة (شارلمان) بلمس حماية الحجاج المسيحيين المتوجهين الى القدس ، فأجاب الرئيس على طلبه ، ورد اليه مع مبعوثيه هدايا ثمينة بينها ساعة دقاقة لم تكن اوروبا تعرفها من قبل ولا كان (شارلمان) رآها في حياته .

شريط من الصور يمر امام الرئيس صدام حسين وهو يستمع الى السيد فوزيل ، وكأنهما يبحثان امكانية احياء ميت .. هو العلاقات بين باريس – بغداد

فمنذ زيارته الى باريس سنة 1974 عندما كان نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة أشاع فرصاً واسعة للثقة والتعاون لم يكن الاتفاق النووي بين باريس وبغداد الشاهد الوحيد عليها ، يوم كسر الفرنسيون ، وفي مقدمتهم جاك شيرك رئيس الوزراء آنذاك ، الحاجز الذي يفصل بين جولة من العالم الثالث وخفايا الصناعة النووية في الغرب حين استجاب شيرك لرغبة صدام حسين في ترتيب زيارة احد المفاعلات النووية الفرنسية ليختار بنفسه نموذج المفاعل الذي يحتاجه العراق .

لكن ايقاع العلاقات تعثر ، ثم تباطأ ، ولم تسهر الامور كما تمتت بغداد ، وبحلول سنة 1988 كان العراق يتوقع ان كسبه الحرب مع ايران يمكن ان يكون سبباً لتزويد فرنسا من مستوى علاقاتها السياسية والعسكرية معه ، لكن الذي حصل ان فرنسا أوقفت شحناتها العسكرية في لحظة رجحان الموقف لصالح العراق ضد إيران مما خلق شكوكاً عميقة في بغداد حول دوافع التحول الحاد في موقف فرنسا ، إذتر ان القادة العراقيين كانوا يعتقدون من قبل ان وجود لوران فابيوس على رأس الحكومة الفرنسية منتصف الثمانينات عطل كثيراً خط النمو الصاعد في علاقات باريس وبغداد ، يوم غادر فابيوس رئاسة الحكومة بقي رولان دوما وزيراً للخارجية ولم يكن هو أيضاً من المتحمسين لتطوير العلاقات مع العراق وقد تلمس طارق عزيز وزير خارجية العراق ذلك بنفسه بعد شهر واحد من وقف اطلاق النار بين العراق وإيران عندما رتب سفير العراق في باريس آنذاك مكالمات هاتفية بين دوما بمكتبه في باريس وطارق عزيز الذي كان موجوداً في مقر البعثة العراقية في نيويورك لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وفوجيء الوزير العراقي ان دوما يتبنى التفسير الايراني لقرار مجلس الامن 598 حول وقف اطلاق النار وترتيب اجراءات لاسلام بين العراق وإيران وتجاهل دوما طلب العراق قيام مفاوضات مباشرة بينه وبين ايران .. وأشار الوزير الفرنسي صراحة ان على العراق ان يلتزم بإتفاقية الجزائر لسنة 1975 ما دام قد وقعها ، ورغم ان دوما كان على معرفة شخصية بطارق عزيز وتربطه ببغداد التي زارها خلال الحرب العراقية – الإيرانية علاقة تفهم متوازنة ، ورغم أنه لم يكن هناك أي ود

بين فرنسا وإيران في سنة 1988 إلا ان الوزير الفرنسي لم يعارض فكرة تجزئة القرار 598 كما كانت ايران تفسر القرار ، وفي الوقت الذي كان العراق يرى ان القرار وحدة متكاملة لا يجوز ان تتجزأ .

والتقط طارق عزيز الإشارة واضحة : ثمة تحول في الموقف الفرنسي يُقصد به إيقاف السنغ الصاعد في العلاقات باستخدام الكوايح التي " تفرمل " هذه العلاقات . وصادف خلال زيارة طارق عزيز الى نيويورك ان التقى مع جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي آنذاك خلال دعوة غداء أقامها الوزير الأمريكي لعدد من وزراء الخارجية العرب ، فاكتشف ان منطق الأمين العام للأمم المتحدة خافير بيريز دي كويار المدعوم من الوزير الامريكي لا يختلف عن منطق دوما في الوقوف ضد فكرة المفاوضات المباشرة بين العراق وإيران لتطبيق القرار الدولي ، فأدرك ان الموقف الفرنسي الجديد هو جزء من موقف غربي عام في التعامل مع العراق بعد انتهاء الحرب العراقية – الإيرانية .

وتيقن سفير العراق لدى فرنسا ، ومن ثم وزارة الخارجية العراقية ان هناك من يسحب العلاقات الى الخلف ، فما كان السفير يتوصل في مباحثات مضمينية مع (شير) سكرتير عام الخارجية الفرنسية الى اتفاقية لجدولة الديون المستحقة على العراق ، حتى يكتشف بعد ايام ان مجموعة المتنفذين في وزارة المالية الفرنسية ترفض مشروع الإتفاق ، لتجعله يدور في حلقة مفرغة ، بحيث مضت سنة 1989 دون ان يتمكن البلدان من تسوية مشاكلهما المالية والإتفاق على حل .

عاد الرئيس صدام حسين يشرح لميشيل فوزيل رؤيته بلاده للعلاقات مع فرنسا فقال: " لكل هذه الأسباب التي تحدثت عنها فقد اخترنا الصداقة مع فرنسا قبل ان تختار هي الصداقة معنا ، اخترنا الصداق في اطار نظرة بعيدة وفي رؤيتنا اننا جزء من أمة كبيرة وفي الوقت نفسه كان واضحاً لدينا ان فرنسا جزء من اوربا وتلعب دوراً متميزاً فيها ، وعندما اخترنا الصداقة معها لم يكن ذلك على أساس مفردات معينة ولم تكن في حاجة الى السلاح او الى الأموال وانما كنا بحاجة الى اطار بنائي واضح ذي مدى مستقبلي بعيد . وأضاف من هذا فان مبادرتنا للعلاقة مع فرنسا هي اختيار سياسي ستراتيجي وليس اختيار ظرف طارىء ، لذلك أنا مسرور عندما تقول ان فرنسا تريد لهذه الصداقة ان تستمر ، اما من ناحيتنا فلم نجد تغييراً على علاقتنا وصداقتنا ونأمل ان تكون فرنسا كذلك وطبقاً لهذا التحليل فإننا نشجع فرنسا على ان تلعب دور الدولة العظمى أكان في العالم او في مداخلاتها المشروعة في منطقتنا ، ولكننا نسأل أحياناً هل ان فرنسا مهياة لأن تلعب هذا الدور ؟ إنز ان الواقع يؤشر لنا أحياناً العكس . فأهم ما يتطلبه الدور الكبير هو استعداد للتضحية من المستوى نفسه ، فهل فرنسا مستعدة لذلك ؟

وعاد الرئيس للحديث عن المتغيرات الدولية المستجدة بعد بروز نزعة امريكا في الانفراد بالسيطرة على العالم : " امريكا تريد السيطرة على المنطقة وبترونها ، ولأنها أصبحت متفלתة ومنفردة في العالم فانها ستحدد طموحات الدول الكبرى بما في ذلك فرنسا ، فهل لدى ميثران تصور بهذا المستوى كما كان تصوره عميقاً للصراع الفارسي العربي ؟ .. وهل ان هذا التصور لديه يمتد الى رؤية كما نراها وهي ان اسرائيل التوسعية حليفة في المخطط الامريكي ؟ عندما يكون الجواب نعم فاننا لن نختلف بعد ذلك وإذا توحدت الرؤية في هذا الاتجاه لن نجد اختلافات في أية قضية من القضايا .

صار واضحاً امام فوزيل ان الرئيس صدام حسين يدقق في معرفة النيات ويبحث عن نقاط مشتركة في النظرة الى الدور الامريكي الجديد على أساس أن الإطمئنان لوجود تماثل في الرؤيا سيجعل معالجة أي موضوع امراً ممكناً ومن خلال الأزمة التي جاء فوزيل لي طرح استعداد فرنسا في إيجاد مخرج لها . قال الرئيس صدام حسين لفوزيل بعبارات محددة :

– (إن العراق يريد السهلم لانه يحتاج السلام اكثر مما تحتاجه امريكا) .
واستدرك يوضح لمستمعه :

– ليكن واضحاً بعد ان حدد الأمريكان موعداً نهائياً لإستخدام القوة بعد عشرة ايام من يومنا هذا اننا لن نقدم شيئاً تحت التهديد .. وحدد طريق السلام بانه يمر عبر الحوار المعمق الذي يتناول قضايا المنطقة بمقاييس واحد وليس بمقاييس مزدوجة : " هذا حق واختبار لجدية القائلين بالحل الدولي وإلا فليتركوا للعرب ليحلوه بينهم كما سبق للعرب ان حلوا نزاعات اخرى .

استمر فوزيل يصغي ويدون الملاحظات حتى وصل الرئيس للإشارة الى الدعوى الفرنسية التي يحملها فوزيل فقال :

– إنني أنصح السيد ميثران ان لا يقدم على مبادرة قبل أن تستكمل امامه صورة كل التفاصيل وها أنت أول فرنسي يجيء الينا عليك إطلاع السيد ميثران على الحقائق ليكون الحوار بيننا شاملاً وواضحاً . وأضاف : " أما إذا كان السيد ميثران متعجلاً في مبادرته فسندرسها في ضوء مدى شموليتها وإذا ما وجد ميثران ان الظروف الدولي لمبادرة بهذا الشمول فان الطريق الذي أمامنا هو الحل العربي " .

قال فوزيل : " إن مشروع السلام المقدم منا الى الجمعية العامة للامم المتحدة مشروع مفيد وقد أضاف ميثران شروحات اليه في مؤتمره الصحفي في

15 / 12 / 1990 وان رئيس فرنسا يتقاسمكم الشعور بأهمية استقلالية بلاده فقد قال بالأمس يجب الا يتصور بوش ان جنرالات فرنسا وجنودها من الدرجة الثانية . وربما أراد فوزيل بهذه الملاحظة ان يمرر الى العراقيين استياء فرنسا من الطريقة التي يعامل بها جنودها في السعودية من قبل القيادة العسكرية الامريكية التي كانت قد جمعتهم في منطقة حفر الباطن حيث لا تتوفر الخدمات التي يتمتع بها الجنود الامريكان الموجودون في المنطقة الشرقية وعلى الساحل بحيث تجمع الفرنسيون في منطقة صحراوية ذات مناخ صعب وتم وضعهم الى جانب القوات العربية التي ظل الامريكان ينظرون اليها على انها صنف من الدرجة الثانية ، وكان بيير شوفنمان وزير الدفاع الفرنسي قد عاد مستاءً بعد زيارته الى القطعات الفرنسية في حفر الباطن لما سمعه من جنوده عن التعامل الامريكي السيء معهم .

ونقل فوزيل رغبة الدول الاوربية في عقد لقاء مع وزير خارجية العراق ، فقال الرئيس : " ان وزير الخارجية لن يذهب الى اوربا قبل ان يزور الاوربيون بغداد كنوع من المقابلة بالمثل ، وسبق ان رحبنا باللقاء مع وزيرى خارجية ألمانيا وإيطاليا وكان هناك حديث حول فرنسا لكن المواعيد ألغيت بعد إلغاء موعد امريكا وفي كل الاحوال نرحب بأي وزير خارجية اوربي في بغداد " . وهنا ذكر مبعوثه اليكم هو وزير خارجيته رولاند دوما ، ولكن فرنسا تريد من العراق ان يعطيها حجة امام شركائها وذلك بالإعلان عن النية بالانسحاب ، وقد فهمت الآن ان هذا الاعلان يكون ضم المسألة الفلسطينية والضمانات التي يريدها العراق " .

اختتم الرئيس المقابلة بإعادة تحديد الموقف من الخطوة الفرنسية " لقد تحدثت معك بشكل شامل وانا اعتقد بضرورة مواصلة الحوار وعلى الفرنسيين ان يضعوا في بالهم ان هناك مبادرة يؤيدها العراق او بياناً يعلق عليه إيجابياً بدون الدخول في التفاصيل او تصريحاً يسكت عنه ، فهناك في الدبلوماسية مجالات كثيرة " . واستطرد : لو اطلع الرئيس ميتران على تصريح ادوارد هيث عندما كان وكيلاً لوزارة الخارجية البريطانية لأدرك كم هو معقد موضوع الحديث عن كلمة " انسحاب " فقد قال هيث في تصريحه الى أين ينسحب العراق ؟ ليست هناك حدود .. فمطلوب من فرنسا ان تتحرى عميقاً الحقائق التي توجد وثائقها في بريطانيا وتركيا ونحن حاضرون لمعاونتكم " .

* * *

وقبل ان يغادر فوزيل المكان كانت لديه فرصة لحديث قصير على انفراد مع الرئيس صدام حسين لم يحضره غير المترجم .

في باريس كان هناك شخصان في إنتظار فوزيل الأول هو الرئيس فرانسوا ميتران الذي كان قد قابل مبعوثه قبل السفر الى بغداد وأملي عليه تعليماته ، ولذلك كان اول شيء فعله فوزيل فور عودته الى باريس ان ينطلق الى قصر الأليزيه لمقابلة رئيسه وإبلاغه بالذي سمعه في بغداد . اما الشخص الثاني الذي كان ينتظره فهو سفير العراق في فرنسا ، عبدالرزاق الهاشمي ، فقد استمع هو الآخر الى انطباعات فوزيل " إنني سعيد لان الزيارة كانت مفيدة جداً " .

بعد ايام قلائل تبلورت الافكار التي كان قد حملها فوزيل الى بغداد في مشروع فرنسي من خمس نقاط تسلمه السفير من وزير الخارجية دوما ، وتأسس المشروع الفرنسي على القاعدة ذاتها التي عرضها فوزيل وهو ان يعلن العراق نيته واستعداده للانسحاب بدون ضمانات مسبقة ، فبعد دعوة غداء يوم الخميس العاشر من كانون الثاني (يناير) 1991 ، التقى سفير العراق وزير الخارجية دوما بناء على طلب الأخير .. واستمع منه الى ما يدل على بقاء ما يمكن ان يخاف على ما تبقى من علاقات بين البلدين وخاطب دوما الدبلوما العراقي :

– إننا نشكر الرئيس صدام حسين لثقته بمصداقية فرنسا طبقاً لما قاله لميشيل فوزيل .. وان مصداقية بلادنا هي في الميزان اليوم ، ونحن نرغب في ان ترافقنا في مسعانا لحل المشكلة دول اخرى مثل الجزائر واسبانيا والاتحاد السوفيتي وقد استجمعنا الأفكار الآتية لتكون مشروعاً للحل .

سحب السفير ورقة وبدأ يسجل ما يتلوه عليه الوزير دوما :

– الخطوة الاولى بعد الانسحاب هي ان يتم تشكيل قوة عربية من البلدان التي لم يكن لها موقف منحاز لأي من الطرفين كدول المغرب العربي ، وتأخذ هذه القوة على عاتقها تسيير شؤون الكويت خلال مدة انتقالية – ثم تبدأ دول هذا التشكيل بمفاوضات حول كل المشاكل والمواضيع التي يريد العراق ان يطرحها مثل الحدود ومستقبل النظام في الكويت والامور المالية وتحديد شرعية السلطة في الكويت .

وأضاف دوما :

– في الوقت نفسه ، او قبل الخطوة رقم واحد ، أو بعدها وحسبما سيتم الاتفاق عليه تقوم فرنسا بدعم من دول اخرى مثل الجزائر وإسبانيا وروسيا وألمانيا بإثارة القضية العريضة على قلب الرئيس صدام حسين ، وهي القضية الفلسطينية من خلال الدعوة لعقد مؤتمر دولي حول الخليج وفلسطين ولبنان ، ونحن نأمل ان تؤيدنا الصين في هذه الخطوة .

واستدرك الوزير الفرنسي :

– لا نريد ان نخدع العراق ، فأميركا وأسرائيل لن توافقا على هذه الخطوة .. اما الاتحاد السوفيتي فسأتحدث الليلة مع وزيره .

اما الخطوة الثالثة فقد وصفها الوزير دوما على النحو الآتي :

– (مقابل الموافقة على الفقرتين الاولى والثاني يتعهد العراق بالانسحاب حسب جدول زمني يحدده هو) .

واشعر دوما مستمعه بان الجزائر تؤيد هذه الخطوات وان وزير خارجيتها الذي كان في جنيف امس 9 / 1 / 1991 تحدث عن هذه البرنامج مع الوزير العراقي طارق عزيز .

سأل السفير : وما هي الخطوات العملية ؟

أجاب دوما : إذا وافقت بغداد من حيث المبدأ على هذه الأفكار سأتوجه الى بغداد لمناقشة التفاصيل .

حين ارسل السفير المشروع الى بغداد تسلم في اليوم نفسه برقية من ست كلمات : " أهلاً وسهلاً بالوزير دوما لمناقشة المشروع " .

كان العراقيون راغبين في اعطاء فرنسا فرصة النجاح في خطوتها ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يستذكرون الطريقة التي تعامل بها الفرنسيون مع الرئيس ا فلسطيني ياسر عرفات ، فقد طلبوا منه كأصدقاء ان يقدم تنازلات متتالية لتكون ورقة بأيديهم في طرح القضية الفلسطينية على المستوى الدولي وبدعوى إخراج الإدارة الامريكية .. وكانت النتيجة ان عرفات أعطى ما أراده الفرنسيون ولكنه لم يحصل على شيء ، فزلت هذه الصورة ماثلة امام ابصار العراقيين وه م يتأملون الخطاب الفرنسي الموجه اليهم .

حمل السفير الهاشمي رد بغداد الى وزارة الخارجية الفرنسية وسلمه مباشرة الى (كيسي جان) مدير مكتب الوزير ثم اجتمع مع (شير) سكرتير عام ال خارجية الفرنسية وتحدث في اليوم التالي مع (ادغار بيزاني) رئيس معهد العالم العربي الذي أبدى حماسة للقيام بدور بناء بين باريس وبغداد ، وأطلع الع راق شخصيات سياسية واقتصادية ورؤساء شركات مؤثرة في فرنسا ورجال الصحافة على ترحيبه بدور فرنسا واعتقاده ان باريس مؤهلة لصنع السلام .

كان العراق قد اسس في السنوات العشرين التي سبقت دخوله الكويت منظمة صلات اقتصادية وسياسية وثقافية مع فرنسا ارتقت الى مستوى التعاون ال ذي وازن في الثمانينات العلاقات العراقية – السوفيتية العريقة التي تستند الى معاهدة صداقة وتعاون موقعة سنة 1972 ، ولم يكن حادث الدخول الى مذ زل السفير الفرنسي في الكويت مطلع أيلول (سبتمبر) السبب الذي دفع بالرئيس ميثران لإتخاذ موقف حاد ضد العراق والإنضواء الى التحالف الدولي الذ ي تقوده الولايات المتحدة الامريكية بهدف اخراج القوات العراقية من الكويت ورفض الحظر الشامل على العراق .. برغم ان حادث السفير الفرنسي في الكوي ت كان بالغ التأثير من الناحية النفسية والسياسية في الفرنسيين وجاء ليكون عنصراً مساعداً في تسوية سياسة ميثران ضد العراق ، إنذار الجمهور الفرذ سي لم يستوعب قيام ضابط عراقي مع مجموعة من الجنود باقتحام منزل السفير الفرنسي في الكويت ولم يكن الإعتذار الذي قدمته الخارجية العراقية كافياً لإمتصاص موجة الغضب التي وجها وشحنها الإعلام الفرنسي بعد وقوع الحادث وجعلت الرئيس الفرنسي يعلن بكلمات قاسية تحذيراً للعراق مفعماً بعبار ات الإستياء التي لم يتعود العراقيون الإستماع اليها من مسؤول فرنسي طوال عشرين سنة .

كان التفسير السائد في بغداد قبل سنتين من ذلك التاريخ ان موقف فرنسا تغير تغيراً حاداً تجاه العراق بعد انتهاء الحرب مع ايران لتحيد باريس عن سياسة التعاون العسكري والسياسي التي تبنتها طوال سنوات الحرب العراقية – الإيرانية بدافع تقوية العراق كقوة وحيدة قادرة على صد الأصولية الإيرانية في ال سنوات التي هددت بها طهران مصالح الغرب وحلفائه في المنطقة ، ولكن عندما انهزمت ايران وزال خطرهما حصل التغيير الذي صارت بغداد تراقبه بحذر وق ل ، بعد سنوات الانتعاش والنمو .. وكانت الدبلوماسية العراقية تشعر بان ميثران الذي أعلن قبل وصوله الى رئاسة الجمهورية انه سيعيد النظر بسياسة ال تعاون مع العراق اتخذ موقفاً مغايراً لتصريحاته السابقة بعد ان دخل الأليزيه فعلاً حفاظ على هذه العلاقات ليبدو آنذاك اكثر انسجاماً مع افكار كلود شيس ون وميشيل جوبير الوزيرين الديغوليين الأقرب فهما بالمنطقة العربية ، واستجاب ميثران ايضاً لضغوط تجار الأسلحة ، لكن الجناح المتحفظ على سياسة ال تعاون مع العراق ظل يعمل بعدوء الى الحد الذي يستنتج فيه (جيل مونييه) الامين العام لجمعية الصداقة العراقية – الفرنسية خلال حوار بيننا حول العلاقا ت الثنائية بعد انهيارها ، ان هناك تيارين في الخارجية الفرنسية أحدهما يؤيد التعاون مع العراق والثاني يتحفظ على هذا التعاون ويميل الى المنهج البريطاني ي ويرى ان فرنسا مثل بريطانيا صاحبة مصلحة في إبقاء العراق ضعيفاً وان هناك وقائع تاريخية تفرض إحياء ملف قديم يعود الى مطلع القرن عندما بحثت قضية ولاية الموصل في عصبة الامم واستبعدت فرنسا لصالح بريطانيا في الطريقة التي تقرر فيها رد الإدعاءات التركية في ولاية الموصل ، ولذلك فان هنا

تجاراً ما زال يرى ان لغرسنا الحق في العودة لإحياء قضية قديمة وان هذا الملف لا يجوز ان يغلق الى الأبد ، اما التيار المؤيد للتعامل مع العراق فكان يرى انه لا توجد عقد تاريخية بين العراق وفرنسا تمنع نشوء مستويات متقدمة ولم يخلف الفرنسيون في ذاكرة الشعب العراقي مآسي دامية مثل التي خلفوها لدى شوب المغرب العربي ، ومن هذا المنطلق فان العراق هو بوابة العودة الحقيقية لفرنسا الى العالم العربي واقرب ليكون كذلك حتى من مصر التي اشتركت فرنسا الى جانب بريطانيا واسرائيل في مهاجمتها عسكرياً في أثناء حرب السويس سنة 1956 ، وكان كلود شيسون وميشيل جوبير ينظران بهذا الإتجاه طول عقد السبعينات .

بعد سبعة أيام من عودة فوزيل الى باريس رن جرس الهاتف في الطابق الثاني من مبنى السفارة العراقية بباريس عند الساعة مساء الاحد الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) 1991 . فحول سفير العراق عبدالرزاق الهاشمي أنظاره من القناة الفرنسية الخامسة التي كانت تعرض شريطاً مصوراً عن هبوط قوات امريكية جديدة في قاعدة الظهران . ورفع سماعة الهاتف :

– سعادة السفير .. أرجو ان تكون مستعداً عند الخامسة مساء غداً لملاقاة الرئيس فرانسوا ميتران .

كان المتحدث على الطرف الآخر هو مدير المراسيم في الخارجية الفرنسية . وخلال دقائق كان الهاشمي قد أعد برقية الى بغداد : (لقد طلبني ميتران الى مقابلة عاجلة غداً .. تعليماتكم) .

وقرر السفير ان يمكث في مبنى السفارة . وسحب من درج مكتبه ملفاً يحوي المشروع الفرنسي ذا النقاط الخمس الذي كان قد تسلمه قبل ثلاثة أيام من وزير الخارجية الفرنسي . وتساءل في نفسه :

– هل سيضيف ميتران شيئاً جديداً على المشروع ؟ ام ان لديه مفاجأة في اللحظة الأخيرة ؟

كان ادغار بيزاني رئيس معهد العالم العربي قد أوحى للسفير ان زيارة ”دوما“ الى بغداد يمكن ان تتحقق وأنداك يستطيع العراقيون ان يبحثوا في تفاصيل المشروع الفرنسي ، ساعتها كان السفير يقول لبيزاني : المشكلة ان المشروع يأخذ ولا يعطي ، وهو أقرب الى أفكار متناثرة منه الى برنامج عمل .

لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً عندما وضعت على طاولة السفير واحدة من أقصر البرقيات التي وردته من بغداد :

– (اسمع ما سيقوله ميتران .. وأعلمنا) .

وأدرك ان مهمته دقيقة ، وان عليه ان يتهيأ منذ هذه اللحظة للقاء حاسم .

كان السفير نفسه على معرفة بالرئيس ، فقد التقاه غير مرة في حفلات استقبال رسمية ، واستطاع في واحدة من هذه اللقاءات سنة 1989 ان ينتزع منه موافق غير مترددة على القيام بزيارة الى العراق ، عندما كان يقف الى جانب طارق عزيز وزير الخارجية آنذاك في خلال حفل استقبال أقامه الرئيس فرانسوا ميتران للمشاركين في مؤتمر الاسلحة الكيماوية ، سأل السفير الرئيس الفرنسي : هل تزور العراق ؟ فأجابه ميتران بلا تردد : ولهم پ لا .. ؟ وكان لتلك الإجابة وقع كبير في السنة القلقة التي أظهرت ان علاقات باريس وبغداد غدت معرضة لمشاكل جدية على المستويات السياسية والتجارية . كان نهار الاثنين الثالث عشر من كانون الثاني طويلاً على الدبلوماسي العراقي تابع فيه تصريحات الامين العام للأمم المتحدة ”خافيير بيريز دي كويكار“ بعد عودته من بغداد ، وحتى وصول سيارته الى مدخل قص الأليزيه عند الساعة الخامسة عصراً كان السفير يتابع عبر المذياع خبار بلاده التي شغلت العالم .

حين دخل على الرئيس ميتران كان الى جانبه وزير الخارجية ”رولان دوما“ والسيد ”انكن“ مستشار الرئيس .

واستنتج على الفور من الطريقة الودية التي استقبله بها ميتران انه مقبل على لقاء مفيد وحاسم . وأعطاه وجود مترجمة رسمية في مكان الإجتماع هي ”ندى يافي“ إشارة عاجلة على دقة اللقاء وحساسيته .

بادر ميتران الى مخاطبة الهاشمي : لدي مبادرة ولا أريد ان أفضل .

فأجاب السفير : انكم يا سيادة يمكن ان تكونوا في هذه اللحظة من التاريخ أكبر بطل للسلام في العالم واستطيع ان أجزم ان حكومة بلادي على استعداد لتوفير ظروف نجاحكم في صنع السلام ومنع الحرب .

أعاد الرئيس الفرنسي شرح مشروعه الذي سبق للسفير ان تسلمه من الوزير رولان دوما ، وظل الامر طي الكتمان ، لان الجانبين حرصا على عدم الإعلان عن الامر ، وجرى ترتيب تسلم الرسالة بعد دعوة غداء أقامها الوزير للسفراء العرب بباريس ، وما ان انتهت الدعوة ، حتى خرج السفراء من الباب الرئيسي في مبنى الخارجية الفرنسية ، وكان سفير العراق بينهم ، وحين تفرقوا كل في اتجاه ، عاد السفير عبدالرزاق الهاشمي من باب آخر ليقابل دوما ويتسلم

منه المشروع . مكتوباً . ليتولى إرساله الى بغداد على الفور .

ومضى الرئيس ميتران :

– لقد استدعيتكم للتحديث في مشكلة خطيرة بعد ان تسلمت خطابات عديدة ووجدت ان افضل طريقة هي الحديث معكم وجهاً لوجه لاني أعتقد ان هناك فرصة للسلام .

ونظر ميتران الى وزير خارجيته ثم عاد يخاطب السفير :

– لقد التقيت مع دي كويار بعد عودته من بغداد وكان مصاباً بخيبة امل كبيرة وابلغني ان مهمته لم تؤده الى نتائج ، وسيعقد مجلس الامن اجتماعاً حاسماً مساء اليوم ، ولذلك لم يعد أمامنا وقت طويل ، لا بل ان الوقت لم يعد يكفي ، وإنني أرى اننا وصلنا الآن الى الساعة الرابعة والعشرين الأخيرة ، وقد يميل بعضهم الى التفسير الحرفي لموعد الخامس عشر من هذا الشهر ويعتمد التفسير المتشدد ، في حين يقول آخرون ان على العراق في البداية تنفيذ الانسحاب ، ثم برمجة هذا الانسحاب بموجب جدول زمني سريع .. هذا هو موقف فرنسا ، ولا أقول ان هذا ما سيتبناه مجلس الامن .

وسأل السفير :

– وماذا بعد ذلك سيادة الرئيس ؟

أجاب ميتران :

– بعد تحقيق الانسحاب سنطلب احلال قوات عربية محل القوات المنسحبة وذلك لتنظيم السلطة في الكويت ، ونحن نرى ان القوات العربية يمكن ان تكون من دول المغرب العربي .

عاد السفير يسأل :

– وما هي الضمانات التي ستقدمونها للعراق ؟

قال الرئيس الفرنسي :

– إنني أستطيع ان أعطي ضمانات باسم فرنسا وليس باسم بلدان اخرى بان بلادم لن تتعرض للهجوم وبأنه لن تكون هنا حرب ، اما ما يتعلق بالمؤتمر الدولي حول القضية الفلسطينية فإنني أضمن للعراق اننا سنتستمر في هذا المسعى بعد حل مشكلة الخليج ، ولدي شعور بان هذا الموضوع يقترب لان الهزة ستكون حاسمة .

فجأة ، خاطب ميتران السفير الذي يصغي اليه أنني لا أخدع العراق ، ولدي شعور ان ألمانيا واسبانيا والصين والاتحاد السوفيتي سيتبعون فرنسا ، لكنني لا أضمن ان تعطي اميركا وبريطانيا موافقتها على المؤتمر الدولي قبل عدة أشهر .

وعاد ميتران يتحدث عن الانسحاب كخطوة اولى تسبق أي شيء وقال : ربما نفتح حواراً مع العراق اذا وجه الرئيس صدام حسين اشارة ايجابية وعندئذ سنقضي يوم غد كله من اجل متابعة الموضوع ، ولكن لو نشب النزاع فإننا في فرنسا سندخل حالة الحرب ، وقد طلبت من الوزير دوما أن يتخذ التدابير اللازمة لذلك واطمئن أيها السفير بأنك وسفارتك ستعاملون بشكل لائق ، فرغم ان فرنسا حرة لكنها لن تتخلى عن الشرعية الدولية وارجو ان تكون معي ان فرنسا لو تحركت تجاه الحل السياسي وفشلت فان ذلاً كبيراً سيلحق بها .

كان الامر الذي يشغل السفير هو ان ما طرحه الرئيس الفرنسي هو مجموعة أفكار وليست مشروعاً متكاملأ ، وقد أبلغ بغداد لاحقاً أن فرنسا لم تتقدم بأي مشروع قرار الى مجلس الامن وان كل الذي فعلته انها اوجزت سفيرها في الامم المتحدة بأفكار ميتران الأولية التي خلت من اعطاء أية ضمانات مسبقاً بأن العراق لن يتعرض للهجوم حتى لو انسحب .

كان ميتران قد اجتمع قبل لقائه مع الدبلوماسي العراقي الى الرئيس الزائيري (موبوتو) الذي كانت بلاده ترأس مجلس الأمن يومئذ ، وطلب منه ان تدعم زائير فكرة إصدار بيان رئاسي عن مجلس الامن ، ولا يتمتع مثل هذا البيان في العادة بالقوة الإجرائية التي تتمتع بها قرارات مجلس الامن .

طلب ميتران ان يحصل من العراق على ضمانات بنجاح مهمته من خلال إعلان عراقي غير مشروط عن الاستعداد للإسحاب من الكويت قبل اتخاذ قرار بإرسال وزير الخارجية دوما الى بغداد .

ووجد السفير أن فرنسا تريد ان تحصل على موقف علني مسبق بدون تفاوض او شروط من دون ان تكون هناك اية ضمانات للعراق في الحصول على مطالبه ، والإلتزام المسبق بربط حل القضية الفلسطينية بحل أزمة الخليج ، وحول عدم تعرضه للهجوم ، وقال لميتران :

– سيادة الرئيس ان مشروعكم يتضمن اموراً عديدة وحساسة ، وهناك استيضاحات عديدة لدى حكومتي ، وليس من السهولة في هذه المرحلة الدقيقة

ان يتخذ قرار في بغداد على صيغة الورقة التي أرسلناها من دون ان تتوضح الضمانات ويتوضح المشروع فقرة فقرة من قبل مسؤول فرنسي مخول ، وليس من هو افضل من السيد دوما لمناقشة المشروع في بغداد .

أجاب ميتران :

– إنني لا استطيع المضي قدماً ما لم أشعر انني لن افشل مطلقاً .

فعلق السفير :

– لن يكون هناك فشل سيادة الرئيس . ولنفترض ان زيارة دوما فشلت ، آنذاك تستطيع الذهاب الى الجمعية الوطنية الفرنسية وتقول انك بذلت جهداً ، وأرسلت دوما ، وعندئذ تتخذ قرار الحرب ضد العراق وانت مطمئن بعد ان تكون قد حاولت منع وقوع الحرب .

وكرر ميتران مرة ثانية : لا أريد أن أفشل .

فعاد السفير يزرع لدى الرئيس الفرنسي شعوراً بالنجاح الممكن : " أستطيع ان أؤكد لك ان احتمالات الفشل قليلة وأن الوقت يمر بسرعة " .

ولم يحصل السفير على وعد من الرئيس ميتران بإيفاد وزير خارجيته الى بغداد ، ولكنه خرج بإنطباع أن ميتران سيقدر الامر بعد المقابلة حتماً .

– سأنقل ما جرى لحكومتني .

بهذه العبارة انتهت المقابلة الأخيرة بين رئيس الجمهورية الفرنسية وسفير الدولة التي كانت صديقة ثم ما بثت ان صارت هدفاً لطائرات فرنسية مغيرة بعد ثلاثة ايام فقد على لقاء الأليزيه .

عند الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة من عصر يوم الاثنين الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) 1991 خرج سفير العراق من بابا قصر الاليزيه ليجد جمهرة من الصحفيين بانتظاره ، كانت الأسئلة تتوالى : ماذا قاله لك الرئيس : ماذا نقلت اليه ؟ هل ستقع الحرب ؟ هل سيقبل العراق بمشروع ميتران ؟ هل هناك أمل ؟ كيف وجدت ميتران ؟

ضحك الهاشمي وأجاب بالانكليزية : لا تعليق ، لينطلق مسرعاً الى مقر السفارة ويبرق الى بغداد تفاصيل مقابله مع ميتران .

كانت سلسلة من الاتصالات غير الرسمية وعبر اطراف ثالثة قد جرت بين الحكومتين العراقية والفرنسية ، إنزب بذل الفلسطينيين في اثناء شهر ايلول (سبتمبر) 1990 محاولتهم الاولى وتوسطوا في بغداد لتأمين سفر الفرنسيين من العراق ، وأظهرت بغداد ارتياحها من خطاب الرئيس ميتران في الامم المتحدة يوم 24 ايلول (سبتمبر) وأصدرت بياناً قالت فيه : " ان هناك اشارات ايجابية ونحن على استعداد للحوار لتطوير هذا الموضوع " ، ويومئذ انطلق السفير الهاشمي الى مبنى الخارجية الفرنسية ليلبغها رسمياً ترحيب بلاده بخطاب ميتران ورغبتها في متابعة ما ورد في الخطاب الذي تميز برفضه استعمال القوة ضد العراق وافتح الباب امام الحل السياسي .

انتظرت بغداد خطوات فرنسية تالية ، كما انتظر ذلك الرئيس الجزائري الأسبق احمد بن بيللا والفلسطينيون الذين كانوا يجرون اتصالات غير رسمية بين فرنسا والعراق ، لكن شهرين مرا على الخطاب ولم يتظهر اية اجراءات عملية تعكس ما تضمنه الخطاب ، وزاد حجم القوات الفرنسية التي كانت تتدفق على الخليج .

وفي الاسبوع الاخير من كانون الاول (ديسمبر) تمكن احمد بن بيللا من ترتيب اجتماع بين ممثل العراق لدى المكتب الاوربي الدائم للأمم المتحدة في جنيف السيد برزان التكريتي ورئيس معهد العالم العربي السيد ادغار بيزاني الذي لعب دور قناة الاتصال الفرنسية غير الرسمية ، ثم عقد اجتماع آخر مطلع كانون الثاني (يناير) 1991 ، وبعد أيام قليلة كان بيزاني قد تلقى دعوة لزيارة بغداد لكن الرئيس ميتران منعه من السفر كما أعلن ذلك نفسه في مذكراته عن الأزمة .

هذا المساء الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) 1991 كان على بيزاني ان يلتقي بالرئيس ميتران وزير الخارجية رولان دوما ويعود الموضوع الساخن يتصدر اللقاء : زيارة بغداد .. ويعترف بيزاني ان دوما كان غير مقتنع تماماً بالذهاب الى بغداد برغم انه حصل على وعد من الرئيس بان تجري هذه الزيارة عند الصباح وان تستعمل طائرة كونكورد السريعة لتأمين الوصول الى بغداد في غضون ساعة ونصف .

كان السفير الهاشمي في هذه الاثناء يتكلم مع بغداد :

– برغم ان ميتران لم يقرر حتى الآن ارسال دوما غير انني استنتج انه سيقدر في النهاية ايفاد وزير الخارجية ما لم يضغط عليه الامريكان وتحصل مفاجأة في اللحظة الاخيرة .

وحصلت المفاجأة .. فقد سبقت خطوات خافيير بيريز دي كويار خطوات العراقيين الى الاليزيه .

ففي الوقت الذي توجه فيه الامين العام للامم المتحدة خافيير بيريز دي كويار من مطار تشارل ديغول في باريس الى قصر الاليزيه عند الثامنة والنصف صباح الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) 1991 ، كان (كيسي يجيان) مدير مكتب وزير الخارجية رولان دوما يستفسر من السفير العراقي إن كان مطار بغداد مستعداً لإستقبال طائرة من نوع كونكورد ، فاتصل السفير ببغداد وأبلغه بالإيجاب ، وفي تلك الاثناء كان بيزاني يتهيأ للسفر عند الساعة الحادية عشرة صباحاً .

– لم استمع طوال مقابلي بالرئيس صدام حسين أية كلمة تدل على استعداد العراق للإسحاب من الكويت .

بهذه العبارة أوجز دي كويار الى الرئيس الفرنسي الاستنتاج الذي خرج به بعد زيارته الى بغداد واجتماعه بالرئيس العراقي ، ونصح الامين العام للامم المتحدة الرئيس ميتران بعدم إيفاد وزير خارجيته رولان دوما الى العراق وقال لمستمعه :

– إن زيارتي فاشلة وستفشل انت أيضاً لو أرسلت دوما .

وبدا في الساعة الاخيرة من الساعة الرابعة والعشرين ان فرنسا جادة في تقديم مشروع قابل ليحمل السلام المشرف ، وانتظرت بغداد قدوم الوزير رولان دوما ، لتسأله ان كان قادراً على إعطاء الضمانات الكافية نيابة عن بلاده وامريكا وحلفائها بعدم شن الحرب وصيانة حقوق العراق وتلبية مطالبه .. وبدا ان كال شيء صار ممكناً حتى لو وقع في اللحظة الاخيرة . واستعدت بغداد لاستقبال دوما .

لكن الوزير الفرنسي لم يتوجه الى المطار عند الساعة الحادية عشرة . ولم تصل الطائرة الى بغداد (قبيل منتصف النهار بتوقيت بغداد ، وانسحب الطاقم الفني الذي أعد الطائرة الكونكورد من مطار شارل ديغول بباريس ، إذ ان الاليزيه أصدر أمراً واضحاً الى الخارجية : لا زيارة الى بغداد .. لا حوار مع القيادة العراقية .. اتخذوا الاجراءات اللازمة للدخول في الحرب .

وبدا ان فرانسوا ميتران يتأرجح في لحظة قلقه .. في الساعات الفاصلة بين اجتماعه مع المبعوث الدولي واجتماعه مع الدبلوماسي العراقي .. فهو نفسه دخل في طريق لا يريد ان يكمله حتى النهاية ، وها هو يقابل دي كويار بناء على اقتراح امركيا رافقته ضغوط مباشرة وغير مباشرة لكي يبقى تحت مظلة الحل العسكري للأزمة ، وهذا يعني خروجه كلياً على تقاليد السياسة الخارجية الفرنسية وان يقبل بالتبعية للموقف الامريكي ، وصار قرار إلغاء زيارة دوما الى بغداد قبل اربع وعشرين ساعة من انتهاء الموعد الذي حدده مجلس الامن لتحويل الولايات المتحدة وحلفائها بإستخدام القوة العسكرية ضد العراق ، فاصلة بين عشرين في السياسة الخارجية الفرنسية ، وكان متوقعاً ، في حمى التورط الفرنسي ، ان يظهر منظرون جدد للسياسة الخارجية الفرنسية يدحضون الأسس التي قامت عليها سياسة الرئيس السابق شارل ديغول مع العالم العربي ، فأعلن وزير الخارجية دوما بعد سنة على انتهاء حرب الخليج : " لا وجود لامة عربية واحدة وقد أخطأ ديغول كثيراً عندما تعامل مع العرب كأمة ، وان العرب ليسوا غير وهم من الأوهام . " ، وتشكل فريق ثلاثي داخل الإدارة الفرنسية يضم دانيال ميتران زوجة الرئيس وكوشنر وزير الشؤون الانسانية ودوما وزير الخارجية يضع سياسية جديدة لفرنسا نحو العراق ، في حين تقاومهم تيارات اخرى تضم مجموعة من النواب الجيسكاريني وشخصيات لامعة مثل بيير شوفنمان وزير الدفاع الاشتراكي الذي استقال غداة الحرب وكلود شيسون وميشيل جوبير الوزيرين السابقين اللذين أسهما بتأسيس شبكة علاقات واسعة بين فرنسا والعرب طوال ربع قرن ، وانضم الى معارضي الحرب جان ماري لوبيين رئيس الجبهة الوطنية الذي كان قد زار العراق خلال الازمة واجتمع بالرئيس صدام حسين .

بعد تجربتين غير مشجعتين لبغداد مع المبادرات الفرنسية شعرت القيادة العراقية انها بحاجة لما يعطيها ضمانة كافية بان الرئيس ميتران (قادر) هذه المرة ليس (راغباً) فقط في منع وقوع الحرب .. كانت بغداد تدرس وتراجع الملف الفرنسي طوال يوم الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) 1990 ، وطبقاً لوثائق الخارجية العراقي فان اول مبادرة اطلقها ميتران امام الامم المتحدة في 24 ايلول (سبتمبر) 1990 قوبلت بجواب ايجابي من بغداد ، لكن الفرنسيين لم يتابعوا المبادرة ولم يتفاوضوا في بغداد على ما طرحه رئيسهم .. حتى غاصت تلك المبادرة خلف الاحداث ، وعندما مررت باريس مبادرة ثانية بعد شهرين قابها العراق بموقف ايجابي آخر عند ما اعلن عن السماح بسفر جميع الفرنسيين الموجودين لديه .. وانتظرت بغداد ان تطور باريس موقفها ، ولكن الذي حصل ان وزير الخارجية رولان دوما أعقب الموقف بسلسلة من تصريحات متشددة ضد العراق ..

اليوم قبل ان تعد بغداد إجابتها على ما قاله ميتران وما ستقوله للوزير رولان دوما – الذي كان يفترض مجيئه اليها – استمعت الى رفض امريكي بريطاني مشترك لمبادرة ميتران .. إذن لا جدوى من الاستجابة الى الأفكار الفرنسية كلها ، او بعضها ، ما دام الطرف الآخر قد رفضها كلها .

لماذا إذن كان الرئيس ميتران يطرح المبادرات بين حين وآخر مع معرفته بان هذه المبادرات ستفشل ؟ .

كانت تحركات الاليزيه أشبه برسالة مزدوجة الى معارضي الحرب في الداخل ، وهم يمثلون قوة ليست صغيرة في الفسيفساء السياسي الفرنسي من جهة ، والى العرب وبخاصة في شمال افريقيا الذين أظهروا تعاطفاً مع العراق ومقاومة لخطة مهاجمته عسكرياً من جهة اخرى .
قال مستشار سابق للرئيس ميتران هو المفكر اليساري ريجسي دوبريه كلاماً أقرب الى الاستنتاج الذي استقر عليه العراقيون بعد تسلمهم آخر اشارة من باريس ... (لا تفكروا كثيراً ان ميتران كان ملتزماً ومؤمناً بهذه الحرب منذ شهر آب (اغسطس) وقبلان يصدر قرار مجلس الامن 678) .

مر خافير بيريز دي كويار ساعات بباريس ليدفن آخر محاولة كان يمكن فيها لفرنسا ان تصنع ما عجز الآخرون عن صنعه ... السلام .. لكن دي كويار بدا وهو يؤدي المشهد الأخير في عرض دبلوماسي تديره الإدارة التي قررت الحرب منذ البداية .. ولعله كان يضع اللمسات الأخيرة في اكمال الحشد النفسي لبدء إطلاق النار .

قبل ثلاثين سنة كان الرئيس ديغول يخاطب الجمعية الوطنية : " سأجعل من فرنسا دولة مستقلة " .. فسأله احد البرلمانيين : وهل ان فرنسا غير مستقلة ؟ أجاب ديغول : " نعم بلادنا غير مستقلة طالما ظلت تسير في ركب السياسة الامريكية " ... وبعد ثلاثين سنة لم يبق داعية ناشط يذكر برسالة ديغول اقوى من وزير الدفاع المستقبل جان بيير شوفنمان الذي أدلى بشهادته في كتابه الذي أصدره بعد الحرب : " لا بد للحوار الحميم الذي أراده الجنرال ديغول ان يقوم بين فرنسا والعرب من ان يتجدد ذات يوم ... وان هناك فرقاً بين موقفنا وموقف الولايات المتحدة من العرب ... فالعالم العربي الاسلامي هو جار لاوروبا تهماً مجاورته ، اما بالنسبة لامريكا فهو أشبه بهلوسة كاريكاتيرية ، لأن ما يهم واشنطن هو السيطرة على النفط وحسب . " .
وحيث وقعت الحرب اعتقد رولان دوما ان العراق مهزوم فيه لان العرب لم ينتصروا في أية حرب ، ونسى الوزير الفرنسي ان بلاده هزمت في كل الحروب التي خاضتها على مدى 200 سنة .